واستخفاف وعبث بعقول الشباب والشيب. قلت مغضبة: دعيني من هذا الحديث، ولست أريد منك شيئًا، وما أقبلت أستعينك على شيء، وإنما ألممت بك محييَة لك قبل أن أترك هذه المدينة فإني عنها مرتحلة، قالت وقد أدارت عينيها وأسبغت على وجهها شكلًا مضحكًا تملؤه السخرية ويشيع فيه التكذيب والاستهزاء، وأرسلت من فمها شهيقًا منكرًا أتبعته بشخير منكر ما أشك في أن الشباب المجتمعين غير بعيد قد سمعوه فتضاحكوا له، وانتهى إلينا ضحكهم حيث كنا، فزادها مرحًا ونشاطًا، وملأني خزيًا واستحياء، قالت: لا تُراعي لا تراعي، فلن أعرضك للبيع كما كنت أعرض هذه الحبوب آنفًا، ولن أكرهك على ما لا تحبين، ولكني أعرض عليك ما عندي، فأنت تكرهين هذه البضاعة أو تظهرين كرهها الآن! فعندي غير هذه البضاعة، ولكن ثقي يا ابنتي أنك راجعة إليَّ فطالبة مني ما ترفضين الآن، لستِ الأولى ولن تكوني الأخيرة … تريدين عملًا كله جدٌّ كهذا الذي كنت فيه عند المأمور، فلم تركت بيت المأمور؟ ولكن هذا من أسرارك، وإن لم يكن للفتيات أمثالك على أمهاتهن من أمثالي سرٌّ؛ فقد أحب أن أعلم من أمرك جليَّه وخفيَّه لأوصي بك عن علم، أَخَرجت سارقة؟ أم خرجت لسوء العشرة؟ أم خرجت للكذب؟ أم خرجت لكثرة الصياح؟ أأغضبت سيدك؟ أم أغضبت سيدتك؟ أم أغضبت بنت المأمور؟ أم أغضبتهم جميعًا؟ وكيف خرجت من هذا البيت في هذا الوقت؟ وهل تعلمين أن في المدينة مأمورين أو بيتين كبيت المأمور؟ وأنت تخرجين في الوقت الذي يستعد فيه البيت للأفراح والليالي الملاح، وتنزلين عما كان يحق لك أن تطمعي فيه من العطايا والهبات! فليس من شكٍّ في أنهم كانوا سيمنحونك كسوة فاخرة، وليس من شكٍّ في أن كثيرًا من النقد كان سيقع إليك من هذا ومن ذاك ومن هذه ومن تلك، فكيف تركت هذا كله؟ أتركته راضية؟ ولماذا؟ أم أُكرهت على تركه؟ ولماذا؟ تكلمي! إني لا أحب الغموض، ولا أطمئن إلى الأسرار، ولا خير في التمنع والإباء والكتمان، فما تخفينه اليوم سأظهر عليه غدًا، وسأظهر عليه قبل أن تغيب الشمس، ولست بزنوبة إن أُخفيت عليَّ أسرار فتاة مثلك لم تبلغ العشرين، وأنا أعلم من أمر هذه المدينة وأسرار أهلها وأخبار الأسر التي تقيم فيها أو تفد عليها أو ترحل عنها ما أعلم. تحدثي! كيف خرجت من بيت المأمور أو كيف أُخرجت منه؟

وأمام هذا السيل المنهمر من الحديث، وأمام هذه الأسئلة الملحة، وهذا الحرص الشنيع على الاستطلاع واستكشاف الأسرار، لم يسعني إلا أن أنهض وأعمد إلى حقيبتي فأحملها وأمضي نحو السلم، ولكني لم أكد أبلغه حتى رددت عنه ردًّا، وحتى كانت حقيبتي قد خطفت مني خطفًا، وحتى كانت زنوبة قد أحاطتني بذراعيها المنكرتين،